الفصل الثاني
الصراع بين العرب والموالي

يظهر أن العرب في الجاهلية لم يكن لهم شعور قوي بأنهم أمة! إنما كان الشعور القوي عندهم شعور الفرد بقبيلته؛ ذلك أنا إذا رجعنا إلى ما نرجح صحته من الشعر الجاهلي وجدناه مملوءًا بالشعور القَبَلي، فالعربي يمدح قبيلته، ويتغنى بانتصارها، ويعدد محاسنها، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيلته. ولكن قلَّ أن نجد شعرًا يتغنى فيه العربي بأنه عربي! ويفخر فيه على غيره من الأمم. والسبب في ذلك واضح؛ وهو أن العرب في الجاهلية لم يكونوا أمة بالمعنى الصحيح، فلم يتحدوا لغة ولا دينًا، وليس لهم آمال وطنية واحدة، ولا ما هو شرط أوليٌّ للأمة، وهو وجود شخص أو هيئة مكونة من عدة أشخاص، لها قوة تنفيذ أوامرها على كافة أفرادها، وحملهم على طاعتها، وطبيعة المعيشة القَبَلية التي كانت تعيشها تأبى ذلك.

أضف إلى ذلك؛ أنه لم يكن هناك ما يشجع العرب على هذه الفكرة؛ لأنهم إذا نظروا هذا النظر لم يشعرهم ذلك بعظمة ولا فخر، فحولهم الفرس من ناحية، والروم من ناحية، وعلاقة العرب منهم ليست علاقة تشعر بالقوة، فهم يتعاملون معهم تجاريًّا، ولكن ليست علاقة الند بالند، بل علاقة الفقير بالغنى، والضعيف بالقوي. ومن تاجر منهم، وانتقل إلى فارس والروم ورأى عظمتهم استضعف نفسه، نعم! وردت بعض قصص قد تنقض ما نقول: كالذي رواه القُظامي عن الكلبي من وفود العرب على كسرى[1]، وافتخار النعمان «بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، لا يستثني فارس ولا غيرها، وأن أمة لو قرنت بالعرب لفَضَلَتها (العرب) بعزها، ومنَعَتها، وحسن وجوهها، وبأسها، وسخائها، وحكمة ألسنتها، وشدة عقولها، وأَنَفَتها،

(١) تجدها في العقد الفريد: جزء ١/ ١٢٤.

ووفائها... إلخ». ولكنا نشك في هذا الخبر شكًّا كبيرًا؛ فإنا لم نجد هذا الخبر إلا عن الكلبي، وهو مشهور بالوضع، ولأن هذا الحديث لم نجد أحدًا رواه في العصر الأموي مع أهميته؛ إنما رُوي عن الكلبي وحده في العصر العباسي، هذا إلى أن ما فيه من الصنعة الفنية دليل على وضعه، بل عندنا من الأخبار الصحيحة ما ينقضه، ذلك ما يقوله قتادة وهو من مشهوري التابعين، وهو كذلك عربي صميم من سَدُوس، قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾: «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًّا، وأشقاه عيشًا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلودًا، وأجوعه بطونًا، مَعْكُومين على رأس جُحْر بين الأسدين: فارس، والروم. لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحسدون عليه. من عاش منهم عاش شقيًّا! ومن مات رُدِّي في النار! يؤكلون ولا يأكلون! والله ما نعلم قبيلًا يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيه أصغر حظًّا، وأدق فيها شأنًا منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورَّثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووسع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس!!»[1].

والعرب لما انتصرت قبيلة منهم على فرقة من الجيش الفارسي يوم ذي قار عدَّت ذلك فخرًا عظيمًا، مع أنه ليس بشيء ذي خطر، فأية فرقة لأية أمة عرضة للانهزام، ولكن العرب أحسوا بالفخر العظيم لانتصارهم، كأنهم ما كانوا يتوقعون أن تهزم حملة فارسية، بل في نفس هذه القصة مستند قوي لما نقول وهو: أن العرب لما انتصروا يوم ذي قار لم يتغنوا بنصرة العرب على الفرس؛ إنما تغنوا بنصرة القبائل التي اشتركت في الحرب، وهم: الشيبانيون، والعِجْلِيُّون، واليَشْكُريون، ولم تتجلَّ في الغناء روح عربية عامة.

(١) تفسير الطبري: ٤/ ٢٥.

ويخبرنا الطبري أنه عندما أراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس، وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم! يقول: «وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم (إلى المسلمين) وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم، وشوكتهم، وعزهم، وقهرهم الأمم». ورَوَى أن المُثَنَّى بن حارثة تكلم فقال: «يأيها الناس، لا يَعْظَمَنَّ عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقَّي السواد، وشاطرناهم، ونلنا منهم، واجترأ مَن قَبْلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها!!»[1].

فالذي يظهر لنا من هذا كله: أن العربي في الجاهلية كان يعتز بقبيلته، والمحمدة التي يفتخر بها هي التي يأتي أفراد قبيلته، فلما رهن حاجب بن زُرارة قوسه عند كسرى ووَفَى ابنه بالرهن، كان الذي يفتخر بذلك قبيلة تميم[2]، والذي يفتخر بالشاعر أو الشجاع قبيلته، وقلَّ أن يتجاوزوا ذلك إلى عدِّ المكرُمة، مكرمةَ أمة!

فلما جاء الإسلام تكوَّن العرب أمةً، وكانت فيها خصائص الأمة التي أشرنا إليها، من: اتحاد لغة، ودين، وميول، ومن وجود حكومة على رأسها. وأعقب ذلك الانتصارُ على أضخم أمتين كانتا في عصرها، وهما: فارس، والروم. ولكن مع هذا لم تنمحِ الروح القبلية؛ فوجدت النزعتان معًا: (نزعة العربي لقبيلته، ثم بطنه ثم فخذه) و (نزعته للدم العربي، والأمة العربية، والجنس العربي)، وسارت النزعتان جنبًا إلى جنب في صدر الإسلام، وصرنا نسمع العربي يفتخر بقبيلته في الإسلام كما كان في الجاهلية، وزاد في الإسلام الافتخارُ بالجنس العربي، كالذي يقول:

إنَّا منَ النَّفَرِ الذينَ جِيَادُهُمْ ... طلَعَتْ عَلَى عَادٍ بِرِيحٍ صَرْصَرِ

---

(١) تاريخ الطبري: جزء ٤/ ٦١.

(٢) يقول أبو تمام يمدح أبا دلف العجلي:

إذا افتخرت يومًا تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

وسَـلَبْن تَـاجَيْ مُلْـكِ قَيْـصَرَ بالْقَنَـا واجْتَـزْنَ بـابَ الـدَّرْبِ لابـنِ الأَصْـفَرِ[١]

فأما النوع الأول -وهو العصبية القبلية- فالحوادث التاريخية في العصر الأموي، والقصائد الأموية كلها تفسر هذه النزعة، ولا تفهم إلا بها. ولنَسُق لك أمثلة للدلالة عليها: يقول رجل من بني أسد بن خزيمة يمدح يحيى بن حَيَّان:

ألا جَعَـلَ الله اليَمَانِـينَ كُلَّهُـمْ فِـدًى لفتـى الفِتْيَـانِ يَحْيَـى بـنِ حَيَّـانِ
ولَـوْلَا عُرَيْـقٌ فِيَّ مِـنْ عَـصَبِيَّةٍ لَقُلْـتُ وَألفًـا مِـنْ مَعَـدِّ بـنِ عَـدْنَانِ
ولكـنَّ نَفْـسِي لم تَطِـبْ بِعَـشِيرَتِي وَطَابَـتْ لَـهُ نَفْـسِي بِأَبْنَـاء قَحْطَـانِ

وروى المبرِّد عن شيخ من الأزد ثقة، عن رجل منهم: أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه، فقيل له: ألا تدعو لأمك؟ فقال: إنها تميمية[٢]!

ودِعْبِل يفتخر باليمن، ويعدد مناقبهم، ويَرُدُّ على الكُميت افتخاره بنزار في قصيدة تبلغ ستمائة بيت، أولها:

أفيقِـي مِـنْ مَلَامِـكِ يـا ظَعِينَـا كَفَـانِي اللَّـوْمَ مَـرُّ الأَرْبِعِينَـا[٣]

وقد ذكر المسعودي طَرَفًا من القصيدتين[٤]، وعقب ذلك بقوله:

«ونَمَى قول الكميت في النزارية واليمانية، وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كل فريق بما له من المناقب، وتحزبت الناس، وثارت العصبية في

(١) بنو الأصفر: الروم، قال ابن سيده: لا أدري لم سموا بذلك!
(٢) الكامل: جزء ١/ ١٩٨.
(٣) نشوار المحاضرة جزء ١/ ١٧٧.
(٤) جزء ٢/ ١٥٥.

البدو والحضر، وتبع ذلك أمرُ مروان بن محمد الجعدي، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية.

وكان عند كثير من ولاة العرب هذه النزعة السيئة في الحكم، وقبيلته حوله ترى أنه إذا وُلِّي الرجل فقد وليت قبيلته، فلما ولي ابن هبيرة العراق اعتقدت فَزَارَة أنها وليت الحكم، فلما عزل وتولى خالد بن عبد الله القَسْري اشرأبَّت أعناق قَسْرٍ، وذلت فزارة، وقال الفرزدق:

لَعَمْرِي لَئِنْ نَابَتْ فَزَارَةَ نَوْبَةٌ ... لَمِنْ حَدَثِ الأَيَّامِ تَحْسِبُهَا قَسْرُ

وفي العصر العباسي، لما تولى معن بن زائدة الشيباني اليمن قَتَل من أهلها تعصبًا لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، فكان عقبة بن سالم -والي عمان والبحرين- يقتل من القيسيين تعصبًا لقومه من قحطان، وكيدًا لمعن لما عمله في اليمن[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة -لا حصر لها- والذي يهمنا في موضوعنا هنا هو النزعة الثانية، وهي نزعة العرب ضد الموالي:

اعتنق العرب الإسلام، وسمعوا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وآمنوا بأن الإسلام خير الأديان، وأن الناس حولهم في ضلال، وأنهم حماة الإسلام، وحملة الدين القويم، وأن عليهم دعوة الناس كافة؛ ليتخلوا عن دياناتهم السابقة، ويدخلوا فيه. وكان من بعد ذلك الجهادُ. فظفروا بفارس ودكوا عرشها، وانتصروا على الروم وهزموا جيشها، واستولوا على كثير مما في أيديها. وعلى الجملة، فقد رأوا أن سيادة العالم كانت للفرس والروم، فانتقلت فجأة إليهم! وأن هؤلاء الفرس الذين كان

(١) انظر: المسعودي جزء ٢/ ١٥٥.

العرب بالأمس يخشون بأسهم أصبحوا تحت حكمهم! وهؤلاء الروم الذين كان العرب يتمنون أن يفتحوا لهم باب الشام ومصر؛ ليتاجروا فيها قد هزموا، وفروا أمامهم إلى عقر دارهم! كل هذا رفع من نفسية العرب، وغلا كثير منهم في ذلك فشعروا بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتاز، ليس من جنسه دم الفرس والروم وأشباههم! وتملكهم هذا الشعور بالسيادة والعظمة، فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود. وكان الحكم الأموي مؤسسًا على هذا النظر! والحق أن العرب في هذا لم يطيعوا الإسلام في تعاليمه! فالله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا فَضْل لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إلا بالتقْوَى»، ويقول عمر: «لو كان سالم مولى حذيفة حيًّا لوليته!!»، وإذا قلتُ: العرب، فلست أعني جميعهم، فقد كان هناك طائفة كبيرة من خيارهم تدين بتعاليم الإسلام، وتجعل مقياس الفضل التديُّنَ لا الدم «فقد كان علي بن أبي طالب: لا يفضِّل شريفًا على مشروف، ولا عربيًّا على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل. فكان هذا من آكد الأسباب في تقاعد العرب عنه!»[1]. وروى المدائني: أن طائفة من أصحاب عليٍّ مشوا إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال، وفَضِّل هؤلاء الأشراف -من العرب وقريشٍ- على الموالي والعجم، واستمِلْ من تخاف خلافه من الناس؛ وإنما قالوا له ذلك لِمَا كان معاوية يصنع في المال، فقال لهم: أتأمرونني أن أطلب النصر بالجَوْر؟!»[2]. ولكن سواد العرب، وحكام بني أمية وولاتهم، كانت عندهم هذه العصبية العربية قوية، يحقرون معها من لم يكن منهم. وكتب الأدب وحوادث التاريخ مملوءة بالشواهد على ذلك: نزل جرير بقوم من بني العنبر فلم يُضيِّفوه حتى اشترى منهم القرَى! فانصرف وهو يقول:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن المدائني جزء ١/ ١٨٠.

(٢) شرح النهج جزء ١/ ١٨٢.

يَـا مَالِـكَ بـنَ طَرِيـفٍ إنَّ بَـيْعَكُمُ رِفْـدَ القِـرَى مُفْـسِدٌ لِلـدِّينِ والحُـسَبِ!
قـالوا نَبِيعُكَـهُ بَيْعًـا فقُلْـتُ لَهُـمْ: بِيعُـوا المَـوَالِيَ واسـتحْيُوا مِـنَ العَـرَبِ!

قال المبرِّد: إن جِلَّةَ الموالي أنفت من هذا البيت؛ لأنه حطهم ووضعهم، ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيبًا[1].

وقال المختار لإبراهيم بن الأشتر يوم خازِر -وهو اليوم الذي قُتل فيه عبيد الله بن زياد: «إن عامة جندك هؤلاء الحَمْرَاء (يريد الموالي)، وإن الحرب إن ضَرَّسَتْهُمْ هربوا، فاحمل العرب على متون الخيل، وأرْجِلِ الحمراء أمامهم»[2].

وروى الأغاني: أن رجلًا من الموالي خطب بنتًا من أعراب بني سليم وتزوجها، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة، ووالِيها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه، فأرسل الوالي إلى المولى، ففرق بين المولى وزوجته، وضربه مائتي سوط، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه!

فقال محمد بن بشير:

قَـضَيْتَ بِـسُنَّةٍ وحَكَمْـتَ عَـدْلًا وَلَمْ تَـرثِ الحُكُومَـةَ مِـنْ بَعيـدِ!

وفيها يقول:

وفي المـائتين للمَـوْلَى نَكَـالٌ وفي سَـلْبِ الحَوَجِـبِ والخُـدودِ!
إذا كافـأتَهُمْ بِبَنَـاتِ كِـسْرَى فَهَـلْ يَجِـدُ المَـوَالِي مِـنْ مَزِيـدِ؟
فـأيُّ الحـقِّ أنْـصفُ للْمِـوَالي مـن اصْـهارِ العَبِيـدِ إلى العَبِيـدِ؟![3]

(١) الكامل ١/ ٢٧٣.
(٢) كامل ١/ ٢٧٤.
(٣) الأغاني جزء ١٤/ ١٥٠.

وكان الحجاج -أحد أركان الدولة الأموية- ينفذ هذه السياسة في شدة ودقة، فقد وسم أيدي النبط بالمشراط، وفي ذلك يقول الشاعر في مولى:

لَوْ كَانَ حَيًّا لَهُ الحَجَّاجُ مَا سَلِمَتْ صَحِيحةً يَدُهُ مِنْ وَسْمِ حَجَّاجِ[١]

ولما نزل الحجاج واسطًا نفى النَّبط منه، وكتب إلى عامله بالبصرة -وهو الحكم بن أيوب- يقول: إذا أتاك كتابي فانفِ مَنْ قِبَلَك من النبط؛ فإنهم مفسدة للدين والدنيا. فكتب إليه: قد نفيت النبط، إلا من قرأ منهم القرآن وتفقه في الدين. فكتب إليه الحجاج: إذا قرأت كتابي فادعُ مَنْ قِبَلك من الأطباء، ونم بين أيديهم؛ ليقفوا عروقك، فإن وجدوا فيك عرقًا نَبَطيًّا فاقطعه! والسلام[٢].

وأمر الحجاج أن لا يؤم الكوفة إلا عربي[٣]. ولما قَبَضَ على سعيد بن جبير -وكان قد خرج مع ابن الأشعث على الحجاج- قال له الحجاج: أما قدمتَ الكوفة وليس يؤم بها إلا عربي، فجعلتك إماما؟! قال: بلى، قال: أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة، وقالوا: لا يصلح القضاء إلا لعربي! فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري، وأمرته أن لا يقطع أمرًا دونك! قال: بلى. قال: أوما جعلتك في سُمَّاري وكلهم من رءوس العرب؟ قال: بلى. قال: فما أخرَجك عليَّ؟!... إلخ[٤].

ويقول الأصفهاني: كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه، فلا يمتنع، ولا السلطان يغير

(١) شرح النهج جزء ٤/ ١٣٣.
(٢) محاضرات الأدباء ١/ ٢١٨.
(٣) العقد جزء ١/ ٢٠٧.
(٤) الكامل جزء ١/ ٣٩٧.

عليه! وكان إذا لقيه راكبًا، وأراد أن ينزل فعل، وإذا رغب أحد في تزوج مولاة خطبها إلى مولاها دون أبيها وجدِّها[١].

وطرب الموالي طربًا شديدًا لما مدحهم جرير بن الخَطَفَي ببيت قال فيه:

فَيَجْمَعُنَا والغرَّ أَوْلَادَ سَادَةٍ أبٌ لا يُبَالِي بَعْدَهُ مَنْ تَغَدَّرَا

فاجتمعوا حوله يسلمون عليه، ويسألونه: كيف أنت يا أبا حَزْرَة؟ وأهدوا له مائة حلة![٢]

بل احتقر العربُ طائفةَ المولدين -الذين ذكرنا طرفًا من نبوغهم وخصائصهم في الفصل السابق- وسموا ابن العربي من الأمَة «الهَجين» قال في لسان العرب: «الهُجْنة من الكلام ما يعيبك، والهجين: العربي ابن الأمة لأنه معيب».

قال ابن عبد ربه: «وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء، وقالوا: لا تصلح لهم العرب»[٣]، ويقول الأصمعي في تعليله ذلك: «إن الناس يرون أن امتناعهم (عن توليتهم) كان للاستهانة بهم. وإن هذا غير صحيح؛ وإنما كانوا يمتنعون عن توليتهم لأن بني أمية كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد». ونحن أميل إلى تعليل الناس من تعليل الأصمعي؛ لأن قولهم هو الذي يتمشى مع الواقع والمنطق الصحيح. وسياسة بني أمية كلها تؤيد ذلك، فهم إذا اختاروا واليًا راعوا عربيته، وإذا اختاروا قاضيًا أو إمامًا يصلي بالناس راعوا ذلك. وليسوا في هذا يرجعون إلى ضرب من التنجيم كما يزعم الأصمعي. وقد لاقى بنو أمية كثيرًا من العنت لتعيين خالد بن عبد

(١) محاضرات الأدباء ١/ ٢٢٠.
(٢) انظر: الأغاني ٧/ ٦٥.
(٣) عقد جزء ٣/ ٢٩٧.

الله القسري واليًا على العراق. ولاقى هو كثيرًا من هجو الشعراء؛ لأن أُمَّه أمة رومية. وأكبر دليل على نقض قول الأصمعي أنهم ولَّوا فعلًا: يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد، وأمهاتهم إماء! ولو كانوا يعتقدون بالتنجيم ما ولوهم؛ إنما الحكمة في توليتهم أن الموالي بدءوا يقوون في آخر العهد الاموي، فاضطر الناس لضرب من الخضوع أمام قوتهم.

وذهب أعرابي إلى سَوَّار القاضي، فقال: إن أبي مات، وتركني وأخًا لي -وخط خطين ناحية- ثم قال: وهجينًا لنا -ثم خط خطًّا آخر ناحية- ثم قال: كيف ينقسم المال بيننا؟ فقال: المال بينكم أثلاثًا إن لم يكن وارث غيركم. فقال له: لا أحسبك فهمت! إن تركني، وأخي، وهجينًا لنا. فقال سوار: المال بينكم سواء. فقال الأعرابي: أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي؟ قال: أجل! فغضب الأعرابي، وقال: تعلم والله إنك قليل الخالات بالدّهناء![1]. وحكى الجاحظ قال: قلت لعبيد الكلابي وكان فصيحًا فقيرًا: أيسرك أن تكون هجينًا ولك ألف جريب؟ قال: لا أحب اللؤم بشيء! قلت: فإن أمير المؤمنين ابن أمة. قال: أخزى الله من أطاعه! ويقول الرياشي:

إنَّ أولادَ السَّراري كثُرُوا يا ربِّ فينا
رَبِّ أدخلني بلادًا لا أرى فيها هَجينا

وكتب محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يُعيِّر أبا جعفر المنصور: «واعلم أني لست من الطُّلَقَاء أولاد، ولا أولاد اللعناء، ولا أعْرَقَت فِيَّ الإماء، ولا حضنتني أمهات الأولاد! إلخ».

فالحق أن الحكم الأموي لم يكن حكمًا إسلاميًّا، ويسوَّى فيه بين الناس، ويكافأ فيه من أحسن عربيًّا كان أو مولى، ويعاقب فيه من أجرم عربيًّا كان أو مولى، ولم يكن

(١) عيون الأخبار ٢/ ٦١، قيل: إنه ليس بالدهناء أمة؛ وإنما كان فيها الحرائر. الكامل للمبرد.

الحكام فيه خَدَمة للرعية على حساب غيرهم. كانت تسود العربَ فيه النزعةُ الجاهلية لا النزعة الإسلامية. فكان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل. فالعمل حق إذا صدر عن عربي من قبيلة! وهو هو باطل إذا صدر عن مولًى أو عربي من قبيلة أخرى! ولسنا الآن بصدد أن نبحث إذا كان الموالي أسعد حظًّا تحت حكم العرب منهم تحت حكم الفرس أو الروم أو أشقى؟ فذلك ما يهم الباحث السياسي.

ولا بد أن نكرر هنا ما سبقت الإشارة إليه من أن هذا النظر القاسي الذي وصفناه ليس نظرًا عامًّا كان عند العرب جميعهم؛ إنما كان هو النظر السائد بين البدو والولاة. أما نظر المساواة فقد كان سائدًا في الأوساط العلمية والدينية. فالعالم يشْرُف بعلمه سواء كان مولى أو عربيًّا. ومن سادة التابعين من كانوا موالي، والناس منحوهم من الإجلال ما منحوا العرب، لا تفاضل بينهم إلا بالدين والعلم. فنجد: الزهري، ومسروق بن الأجدع، وشريحًا، وسعيد بن المسيب، وقتادة، من سادات التابعين، وهم من العرب، كما نجد: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، وعطاء بن يسار، وربيعة الرَّأي، وابن جريج، من سادة التابعين، وهم من الموالي. والناس -من عرب وموالٍ- يأخذون عنهم على السواء، وينتقلون من حَلْقة أحدهم إلى حلقة الآخر، حتى لنرى الحسن البصري ينقد خلفاء بني أمية، وينقد يزيد بن المهلب! ويرى أن يزيد وصحبه وبني أمية وأصحابهم ضُلَّال مارقون! ويقول: والله لوِددت أن الأرض أخذتهما خسفًا جميعًا! ثم يأتي يزيد بن المهلب في رهط من قومه إلى الحسن، ويهم أحدهم بقتله، فيقول يزيدُ: اغمد سيفك! فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا![1] ولما مات تبع الناسُ كلهم جنازته حتى لم يبقَ بالمسجد من يصلي العصر، ولم يستنكر الناس عمل الحجاج في قتله الآلاف من العرب والموالي كما استنكروا قتل سعيد بن جبير وهو مولى لعلمه ودينه!

(١) ابن خلكان ٢/ ٤٠٨.

هذا الذي ذكرنا هو الذي يفسر لنا ما يُروى في كتب التاريخ والسير من قصص مختلفة تدل على احتقار الموالي حينًا واحترامهم حينًا. ويظن الظان لأول وهلة أن بينها تضاربًا، والحق أن لا تضارب، وأن الأوساط السياسية، وأوساط أشراف القبائل، وأوساط البدو كانت تحقر الموالي، وأن الأوساط الدينية والعلمية ما كنت تتعصب لجنس ولا دم؛ وإنما كانت تتعصب للدين والعلم وتقوِّمها حيث كانا.

***

كان يقابل هذه العصبية العربية عصبية أخرى من الموالي وخاصة الفرس، فقد تملكهم العَجَبُ، كيف غلبهم العرب! وعبَّر بعضهم عن هذا المعنى: بأن حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر! وكانا يفخرون على العرب بمجدهم القديم، وعزهم التالد، وأنهم أهل الحضارة العظيمة، ومن عرفوا كيف يسوسون الملك ويدبرون الحكم، وأنهم لما حكموا لم يكن لهم إلى العرب حاجة، ولما حكم العرب لم يستطيعوا أن يحكموا إلا بمعونتهم.

لم تكن عند الفرس نزعة قبَلية، ولم يكونوا يُعْنَوْنَ بالأنساب عناية العرب بها[1]؛ إنما كانوا يتعصبون أحيانًا للبلدان، فقد كان أهل خراسان مثلًا من أشد الناس عصبية بعضهم لبعض، وكانت العصبية القوية عندهم العصبية للأمة، وذلك طبيعي؛ لأنهم قطعوا -من عهد بعيد- طور البداوة وتحضروا، وكانوا أمة بكل معناها الصحيح، وبدءوا يفخرون على العرب في العهد الأموي -كالذي رأيت من شعر إسماعيل بن يسار[2]- فقد كان يتغنى دائمًا بمجد الفرس، ودخل على هشام بن عبد الملك في خلافته فاستنشده فأنشده قصيدة يقول فيها:

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون.

(٢) انظر: الجزء الأول من فجر الإسلام ١٣٨.

إنِّي وجَـدِّك مـا عُـودِي بـذي خَـوَر ... عنـد الحِفَـاظِ ولا حَـوْضي بمهـدومِ!
أصْـلِي كـريم ومجـدي لا يُقـاس بـه! ... ولي لـسان كحـدِّ الـسيف مـسمومِ!
أحمـي بـه مجـدَ أقـوامٍ ذوي حـسب ... مـن كـل قَـرْمٍ بتـاج المُلـك مَعْمـومِ[1]
جَحـاجِحٍ سـادةٍ بُلْـجٍ مرازبـةٍ ... جُـردٍ عِتَـاقٍ مـساميحٍ مطـاعيمِ[2]
مـن مثـلُ كِسرى وسـابور الجنـودِ معًـا ... والهُرْمُـزَان لِفَخـرٍ أو لتعظـيم؟!
أَسـد الكتائـب يـوم الـروع إن زحفـوا ... وهـم أذلـوا ملـوك الـترك والـروم!
يمـشون في حَلـق المـاذِيِّ سـابغةً ... مَـشْيَ الـضَّراغمة الأسـد اللهـاميم[3]
هنـاك إنْ تـسْألي تُنْبَـيْ بـأنَّ لنـا ... جُرْثُومَـةً قَهَـرَتْ عِـزَّ الجَـرَاثِيم

فغضب هشام وقال: أعليَّ تفتخر، وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غَطوه في الماء، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج، ثم أمر بإخراجه وهو يَشر، ونفاه من وقته إلى الحجاز[4].

ولكن هذه النزعة صدها الأمويون صدًّا عنيفًا، وعاقبوا عليها في قوة وجبروت؛ فتحولت من فخر ظاهر إلى دعوة سرية، وكانت الدعوة العباسية.

غير أننا نقرر هنا كالذي قررناه من قبل؛ وهو أن هذه النزعة لم تكن نزعة الفرس عامة، فمنهم من دخل الإسلام إلى أعماق نفوسهم، كمن سميناهم من التابعين ولم ينسوا أن للعرب عليهم نعمة لا تقدر، وهي أنهم هَدَوهم إلى الإسلام، واستنقذوهم

(١) معموم: من عم رأسه إذا لفت عليه العمامة.
(٢) جحاجح: جمع جحجح، هو السيد المسارع في المكارم، والمرازبة: جمع مرزبان وهو رئيس الفرس، والعناق من الخيل: النجائب.
(٣) الماذي: كل سلاح من الحديد، والماذية: الدرع البيضاء، واللهاميم: جمع لهميم، وهو السابق الجواد من الخيل والناس.
(٤) أغاني ٤/ ١٢٠.

من ضلال المجوسية إلى هداية الوحدانية. ففي الأوساط العلمية والدينية كان الفرس لا يؤمنون بعربية وفارسية؛ إنما يؤمنون بإسلام سوَّى بين الناس أجمعين، ولكن كثيرًا من سواد الناس ومن أشراف الفرس كانوا يكرهون العرب، وخاصة الحكام والبيت الأموي. روى صاحب الأغاني: «أن إسماعيل بن يسار استأذن على الْغَمرِ بن يزيد بن عبد الملك يومًا فحجبه ساعة، ثم أذن له، فدخل يبكي، فقال الْغَمْرُ: يا أبا فائدٍ تبكي؟ قال: وكيف لا أبكي، وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أُحْجَبُ عنك، فجعل الْغمر يعتذر إليه وهو يبكي، فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر، وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له: أخبرني، ويلك يإسماعيل أي مروانية كانت لك أو لأبيك؟ قال: بغضنا إياهم، امرأته طالق إن لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه حضره الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: لعن الله مروان؛ تقربًا بذلك إلى الله تعالى، وإبدالًا له من التوحيد، وإقامة لهُ مُقامه!»[1].

كره الموالي الحكم الأموي كراهة عميقة فسعوا في إسقاطه، وقد كانت وجهة نظرهم أن الأمويين لم يعدلوا في حكمهم لنا، وترقبنا انتقال الأمر من خليفة إلى خليفة. فكان أمر الظلم على السواء، اللهم إلا إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز وهو فذ، وليس في الإمكان أن نحول الأمر من العرب إلى الفرس فيكونوا هم الحاكمين؛ لأن السلطة الكبرى لا تزال في يد العرب، ولأنه إذا أثيرت هذه الدعوة تَجمَّع العرب وغير الفرس من الموالي علينا. فلندْعُ إذن إلى نقل الخلافة من يد الأمويين إلى يد الهاشميين، فنجد القلوب مستعدة لقبول الدعوة؛ لأن الهاشميين عرب، ولأنهم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمويين، وهذا يُسرع في قبول الدعوة، ويصبغها صبغة دينية. وأخيرًا فنحن إذا عضدنا الهاشميين رأوا أنهم وصلوا إلى الحكم بمعونتنا، ونجحوا بتدبيرنا؛ فيكون ظاهر الحكم لهم وباطنه لنا، نتولى المناصب العالية، وندير

(١) أغاني ٤/ ١٢٥.

شئون الدولة، ونترك لهم أبهة الخلافة ومظهرها الخارجي. فلهم الشكل ولنا الجوهر. لعل هذا كان أهم ما يدور في خَلَد المؤسسين من الفرس للدعوة العباسية. قال نصر بن سيار يخاطب النزارية واليمانية ويحذرهم هذا العدو الداخل عليهم بقوله:

أبْلِغ ربيعةَ في مَرْوٍ وإخوتهم ... فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحربَ إن القوم قد نصبوا ... حربًا يُحَرَّقُ في حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحونَ الحرب بينكم ... كأن أهل الحِجا عن رأيكم عُزُب
وتتركون عدوًّا قد أظلكمو ... مما تأشَّبَ لا دينٌ ولا حسب
قِدْمًا يدينون دِينًا ما سمعتُ به ... عن الرسول ولم تنزلْ به الكتب
فمن يكن سائلًا عن أصل دِينهمُو ... فإن دينهمو أن تُقْتَلَ العرب[1]

وكتب إبراهيم الإمام لأبي مسلم الخراساني: «إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدًا يتكلم العربية إلا قتلته فافعل! وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، وعليك بمضر؛ فإنهم العدو القريب الدار فأبِدْ خَضْراءهم، ولا تدع على الأرض منهم ديَّارًا»[2].

كانت خراسان مهد الدعوة العباسية، وكانت قطرًا عظيمًا يبلغ نحو ضعف ما يطلق الاسم عليه الآن. وقد تولاها أمراء من العرب بين مضري ويماني، فكانوا يحكمون حكمًا عربيًّا، بل قَبَليًّا؛ فأجج ذلك نار الحقد بين العرب والفرس أولًا وبين اليمانين والمضريين ثانيًا، فالأزديون يمثلون اليمانين، وتميم وقيس يمثلون المضريين، وكل يعمل للزعامة والغلبة. فإذا تولاها يماني واسى اليمانيين وحدهم، وحقر من شأن غيرهم، والعكس. والفرس بين هؤلاء وهؤلاء ضائعون. تولى خراسان المهلب بن أبي صفرة وآله عهدًا طويلًا، وهم أزديون -أي يمانون- فكانت السلطة بيدهم وحكموا

(١) عقد ٢/ ٣٥٣.
(٢) شرح النهج ١/ ٣٠٩.

حكمًا عربيًّا قبليًّا، وكانوا في منتهى الثروة والغنى. فكانوا يمدون اليمانين أولا بمالهم وبجاههم، قال المدائني: «باع وكيل يزيد بن المهلب بطيخًا جاءه من مغَلِّ بعض أملاكه بأربعين ألف درهم. فبلغ ذلك يزيد. فقال له يزيد: تركتنا بقالين أما كان في عجائز الأزد من تقسمه فيهن؟»[١] وكان عمر (ابن عبد العزيز) يبغض يزيد (ابن المهلب) وأهل بيته ويقول: هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم[٢]. وتولى قتيبة بن مسلم وكان باهليًّا (أي مضريًّا) «فتنكرت له أمراء القبائل لإذلاله إياهم واستهانته بهم واستطالته عليهم»[٣]. وأخيرًا تولى خراسان نصر بن سيار، وكان مضريًّا كذلك «فمكث أربع سنين لا يستعمل في خراسان إلا مضريًّا»[٤]، لهذا وأمثاله ساءت العلاقة بين اليمانين والمضريين.

فلما شعروا باجتماع الفرس عليهم فكروا أن يجمعوا كلمتهم، ويوحدوا صفوفهم، فقد رأينا نصر بن سيار ينبه العرب إلى أن الفرس تريد أن تهلك العرب، فأولى أن يتحد العرب كما اتحد الفرس، بل نرى أن الأمر قد وصل إلى أكثر من ذلك. «فقد تَوادعَت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب، والاجتماع على قتال أبي مسلم الخراساني»[٥]، ولكن أبا مسلم وقومه بدهائهم أجَّجوا نار الفتنة بين قبائل العرب من جديد. «فجعل أبو مسلم يكتب إلى شيبان الخارجي يذم اليمانية تارة، ومضر أخرى. ويوصي الرسول بكِتَابِ مُضَر أن يتعرض لليمانية ليقرءوا ذم

(١) ابن خلكان ٢/ ٣٩٥.
(٢) ابن خلكان ٢/ ٤٠٤.
(٣) شرح النهج ١/ ٣٠٩.
(٤) ابن خلدون ٣/ ٩٧.
(٥) ابن خلدون ٣/ ١٢١.

مضر، والرسولَ بكتاب اليمانية أن يتعرض لمضر ليقرءوا ذم اليمانية»[١] ويرسل أبو مسلم لعليِّ بن الكرماني -أحد زعماء اليمانين- من يقول له: أما تأنف من مُصالحة نصر بن سيار، وقد قتل بالأمس أباك وصلبه؟ ما كنتُ أحسِبك تجامع نصر بن سيار في مسجد تصليان فيه!»[٢]. وأخيرًا بعد حوادث ودسائس نجح أبو مسلم «وتقدم نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر. وبعثت ربيعة وقحطان إلى أبي مسلم بمثل ذلك. فتراسلوا بذلك أيامًا، فأمرهم أبو مسلم أن يقْدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما ففعلوا. وقدم الوفدان، وسمع أبو مسلم وشيعته الخطب في ذلك»، ثم أعلن أبو مسلم اختياره فقال: «قد اخترنا عليَّ بن الكِرْماني وأصحابه من قحطان وربيعة... فنهض وفد مضر عليهم الذلة والكآبة»[٣].

اجتمع على الدولة الأموية اليمنية والرَّبَعية والعجم. وكان في النقباء[٤] -وهم القادة والزعماء الذين حاربوا الدولة الأموية- كثير من العرب، منهم قَحْطبة الطائي. وكان من أعظم العرب نفوذًا في قومه وقد خطب في أهل خراسان يحقر العرب ويعظم الفرس في لهجة غريبة فكان فارسيًّا أكثر من الفرس أنفسهم! إذ يقول: يأهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا يُنْصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم؛ حتى بَدَّلوا وظلموا. فسخط الله عز وجل عليهم؛ فانتزع سلطانهم، وسلَّط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم... واسترقوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل، ويوفون بالعهد، وينصرون المظلوم، ثم بدلوا وغيروا، وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البر والتقوى من عِتْرَة رسول الله صلى

(١) ابن خلدون ١/ ١١٩.
(٢) الطبري ٩/ ٩٧.
(٣) تجد القصة بطولها في تاريخ الطبري ٩/ ٩٧.
(٤) تجد أسماء النقباء وقبائلهم في الطبري ٩/ ٩٨.

الله عليه وسلم، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد عقوبة؛ لأنكم طلبتموهم بالثأر»[١]، وبعد أن أدى العرب عملهم نكل أبو مسلم بهم وقتل زعماءهم.

***

سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية، ونال الفرس بعض أمنيتهم لا أمنيتهم كاملة. فأمنيتهم الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكها وعمالها، ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر، فالخلفاء العباسيون مقتنعون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس، وكذلك العلماء والمؤرخون. فداود بن علي[٢] يخطب فيقول: يأهل الكوفة! إنا والله ما زلنا مظلومين، مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون، وإليه تتشوقون؛ فأظهر فيكم الخلفة من هاشم، وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام إلخ»[٣]. وأبو جعفر المنصور يقول: «يأهل خراسان! أنتم شيعتنا وأنصارنا، وأهل دعوتنا»[٤]. ويقول الجاحظ: «دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان عربية أعرابية»[٥]. وكانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة؛ لإقبال الدولة العباسية من خراسان[٦]. وأوصى المنصور ابنه قبل وفاته فقال: «وأوصيك بأهل خراسان خيرًا فإنهم أنصارك وشيعتك، الذين بذلوا أموالهم في دولتك،

(١) طبري ٩/ ١٠٦.
(٢) داود بن علي هو عم أبي جعفر المنصور.
(٣) طبري ٩/ ١٢٧.
(٤) مسعودي ٢/ ١٩٠.
(٥) البيان والتبيين ٣/ ٢٠٦.
(٦) مسعودي ٢/ ١٨٣.

ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده»[١].

استتبع هذا غلبة الفرس ونفوذهم، حتى عد المؤرخون من أهم خصائص هذا العصر النفوذ الفارسي، وضعف النفوذ العربي.

ولكن إلى أي حد غُلب العرب؟ وهل كان نفوذ الفرس في الدولة العباسية كنفوذ العرب في الدولة الأموية؟ وهل انتهى بذلك الصراع بين العرب والموالي؟ الحق أنه لم يكن كل ذلك، فالخلفاء العباسيون عرب هاشميون -ولو من قبل الأب- وهم يفخرون بذلك، ويعدونه من أكبر مناقبهم، وهم إن حفظوا للفرس معونتهم فلن ينسوا عربيتهم، ويوم يشعرون بأن الفرس زاحموهم في سلطانهم نكلوا بهم، كما نكل المنصور بأبي مسلم والرشيد بالمرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل. فالفرس في العصر العباسي الأول كان لهم نفوذ كبير، ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب، كانت أعظم المناصب كالوزارة في يد الفرس، ولكن كان الخليفة عربيًّا هاشميًّا، وكان له قواد من العرب كما له قواد من الفرس، وكان له ولاة من العرب، وولاة من الفرس. فجند المنصور كانوا أقسامًا أربعة: يمنية، ومضرية، ورَبَعية، وخراسانية[٢]. وفي اليوم الذي ولَّى فيه المأمون طاهرًا الشرطة ولَّى جماعة من الهاشميين كُوَرَ الشام[٣]. وقد ولى المنصور محمد بن خالد بن عبد الله القسري الحرمين[٤]. وولاة الرشيد للأمصار كان كثير منهم عربًا[٥]. واشتهر في هذا العصر من أمراء العرب وقوادهم سعيد بن سلم

(١) طبري ٩/ ٢١٩.
(٢) طبري ٩/ ٢٨٢.
(٣) طيفور ٦٤.
(٤) الجهيشاري ١٣٨.
(٥) انظر: الطبري ١٠/ ١١٢.

الباهلي، ومعن بن زائدة الشيباني، وأبو دُلَف العِجْلي، ورَوْح بن حاتم بن قبيصةَ، والمهلب بن أبي صُفرة، وثُمامة بن أشرس، إلى كثير من أمثال هؤلاء.

كل هذا يجعلنا نقول: إن الانقلاب العباسي جعل كِفَّة الفرس راجحة، ولكنه لم يُعدم الكفة الأخرى العربية. وهذا ما جعل الصراع يستمر في هذا العصر. فلنتبعه في إيجاز:

نرى في هذا العصر أن الناس لا يزالون يَنزِعون إلى الفخر بالنسب العربي والولاء العربي، حتى لنرى أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسبًا عربيًّا، فيزعم أنه من نسل سَلِيط بن عبد الله بن عباس[1]. وكتاب الأغاني يحدثنا: أن إسحاق الموصلي -وهو ما هو من القرب من الرشيد- تناظر مع ابن جامع بحضرة الرشيد فتغالطا فسبه ابن جامع، فمضى إسحاق إلى خازم بن خزيمة (وهو عربي) فتولاه[2]، وانتمى إليه، فقبل ذلك منه فقال إسحاق:

إذا كانت الأحرارُ أصلي ومُنْصِبي ... ودافِعَ ضيمي خازمٌ وابن خازم
عطَسْتُ بأنفٍ شامخ وتناولت ... يداي الثَّرَيَّا قاعدًا غير قائم[3]

فهذه القصة تدلنا دلالة واضحة على حاجة الأعاجم في هذا العصر -حتى الأشراف منهم- إلى الانتماء إلى العربي بالولاء؛ ليحتمي به ويدافع عنه. ويحكي الأغاني أيضًا أنه كان لعلي بن الخليل صديق فارسي، فغاب مدة وقد أصاب مالًا ورِفْعةً، ثم عاد إلى الكوفة، وادعى أنه من تميم فقال يهجوه:

يروح بنِسبةِ المَوْلَى ... ويُصبِح يدَّعي العَرَبا!

---

(١) طبري ٩/ ١٦٧.

(٢) أي: طلب أن يكون إسحاق مولى له.

(٣) انظر/ الحكاية في الأغاني ٥/ ٥٦، والغيث المنسجم ١/ ٨٨.

فـــــلا هـــــذا ولا هـــــذا كَ يدْرِكُـــــــه إذا طَلَبـــــا!

إلى أن يقول:

يَـــشمُّ الـــشِّيحَ والقيْـــصو م كـــيْ يَـــسْتوْجبَ النَّـــسَبا!
فـــصار تـــشبُّهًا بـــالقوْ م جِلفًـــا جافيًـــا جَـــشِبا!
إذا ذُكِـــر البِريـــر[1] بكـــى وأبـــدى الـــشوق والطربـــا![2]
ولـــيس ضـــميره في القـــوْ م إلا التِّـــين والعِنبـــا![3]

ويحكي في موضع آخر: أن والبة بن الحُباب كان يدعي النسب إلى العرب، فقال فيه أبو العتاهية:

أوالـــبُ أنـــت في العَـــرَب كمثـــل الـــشِّيصِ في الرُّطـــب!
هلُـــمَّ إلى المـــوالي الـــصيـ ـــد في ســـعَة وفي رُحـــب!
فأنـــت بنـــا لعمـــر اللـــ ـــه أشـــبه منـــك بـــالعرب![4]

... إلخ.

وادَّعى رجل النسبة إلى العرب فقال فيه بشار:

ارفـــق بعمـــرو إذا حركـــت نـــسبته فإنـــه عـــربي مـــن قـــوارير!
ويقـــول فيـــه: إن عمـــرًا فـــاعرِفوه عـــربيٌّ مـــن زجـــاج!
مظلـــم النـــسبة لا يعـــ ـــرف إلا بالـــسراج

وقال مخلد الموصلي:

---

(١) في القاموس؛ البرير الأول من ثمر الأراك.
(٢) في القاموس: البرير الأول من ثمر الأراك.
(٣) القصيدة بتمامها في الأغاني وقصيدة أخرى مثلها في هذا المعنى ١٣/ ١٨.
(٤) القصيدة في الأغاني ١٦/ ١٤٩.

أنـــــتَ عنـــــدي عـــــربيٌّ ... لـــــيس في ذاك كـــــلام!
عـــــربي عـــــربي ... عـــــربي والـــــسلام!!!
شَـــــعْر أجفانـــــك قيْـــــصُو ... م وشـــــيح وثـــــمام![1]

أفلو كان العرب قد ذَلُّوافي هذا العصر، وحقر شأنهم على الوصف الذي يصفه بعض المؤرخين، كانت هذه الحركة -أعني: حركة الانتساب إلى العرب والاعتزاز بهم- تبلغ هذا المبلغ؟

إنما الذي نشاهده كذلك أن الحركة العربية دوفعت بحركة أخرى فارسية، وأن الصوت الخافت الذي كنا نسمعه من مثل: إسماعيل بن يسار في العهد الأموي فيعاقب عليه، أصبح الآن شديدًا وقويًّا حرًّا. ونرى بشارًا زعيم هذه الحركة يفخر مرة بخراسان ويقول:

وهجـــــاني معـــــشر كلهمـــــو ... حمـــــق دام لهـــــمْ ذاك الحُمُـــــقْ
لـــيسَ مـــن جُـــرْمٍ ولكـــن غـــاظهم ... شرفي العـــراض قـــد ســـدَّ الأفـــق
مـــن خراســـانَ وبيتـــي في الـــذَّرى ... ولـــدَى المـــسعاةِ فرعـــى قـــد سَـــمَق[2]

ويفخر مرة بالعجم فيقول:

ونبئـــت قوْمًـــا بهـــمْ جِنَّـــة ... يقولـــون مـــن ذا؟ وكنْـــتُ العَلـــمْ!
ألا أيُّهـــا الـــسائلي جاهـــدًا ... ليعرفنـــي أنـــا أنـــف الكـــرمْ!
نَمَـــتْ في الكِـــرام بنـــي عـــامر ... فروعـــي وأصـــلي قـــريش العَجـــمْ!

ويقول ذلك أمام المهدي فلا يعاقبه، كما فعل هشام بابن يسار، بل يسأله: من أي العجم أنت؟ فيقول: من أكثرها في الفرسان، وأشدها على الأقران، أهل طخارستان:

---

(١) محاضرات الأدباء ١/ ٢٢٢ وما بعدها.

(٢) سمق سموقًا: علا وطال.

بل كان يتبرأ من الولاء ويقول:

أصبحتُ مولى ذي الجلال وبعضهم ... مولى العُرَيب! فخذ بِفَضلك فافخَرِ
مَوْلاكَ أكْرَم من تميم كلها ... أهل الفعال، ومن قريش المشعَر!
فارجع إلى مولاك غير مدافعٍ ... سبحان مولاك الأجل الأكبرِ!

بل كان يدعو إلى الموالي نبذ ولائهم للعرب. فيروي الأغاني: أن رجلًا من بني زيد شريف قال لبشار: «يا بشار! قد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم، وترك الولاء وأنت غير زاكي الفرع، ولا معروف الأصل! فقال له بشار: والله لأصلي أكرم من الذهب، ولفرعي أزكى من عمل الأبرار، وما في الأرض كلب يود أن نسبَك له بنسبهِ!»[1].

وقال له عربي: ما للموالي والشعر؟ فقال يهجو العرب:

أحين كُسيتُ -بعد العُرْي- خَزًّا ... ونادمتَ الكرامَ على العُقار؟
تفاخر يابن راعيةٍ وراعٍ ... بني الأحرار، حسبكَ من خَسَار!
تُريغ[2] بخطبةٍ كسرَ الموالي ... وينسيكَ المكارمَ صيدُ فار
وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قراحٍ ... شركْتَ الكلب وَلغ الإطار[3]
وتغدو للقنافذِ تدَّرِيها ... ولم تعقل بِدُرَّاج الدِّيار[4]
وتتَّشِح الشمال للابسيها ... وترْعَى الضأن بالبلد القَفار![5]

(١) أغاني ٣/ ٥١.
(٢) تريغ: تريد.
(٣) الإطار: ما حول البيت.
(٤) تدريها: تختلها لتصيدها، والدراج: طائر.
(٥) أغاني ٣/ ٣٣.

ولبشار كثير من هذا الضرب؛ يدلنا على ما نقول من أنه كان زعيم الحركة العدائية للعرب. كما يرينا ما كان له ولأمثاله من حرية -في هجاء العرب- لم يكونوا يعهدونها في العصر الأموي.

وكثر ادعاء الناس للانتساب إلى كسرى كذلك حتى قال جَحْظة:

وأهـــل القـــرى كلهـــم ينتمـــو ن لكـــسرى ادِّعـــاء! فـــأينَ النَّبـــيط؟[1]

***

مما لا شك فيه أن نفوذ الفرس قد قوي في عهد العباسيين الأولين، وكان هذا النفوذ يزداد قوة يومًا فيومًا.

قد كان استخدام الموالي في العهد الأموي نادرًا، وكان يقابَل بامتعاض. قد استخدموا -مثلًا- رجاء بن حَيْوَة، وكان مولى كِنْدَة. واستخدم عمر بن عبد العزيز مولًى، وجعله واليًا على وادي القُرَى. فعوتب على ذلك. ولكن ما كان شاذًّا في العصر الأموي صار هو المألوف في العصر العباسي. ابتدأ المنصور يكثر من استخدام الموالي. يقول السيوطي: «إن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال، وقدمهم على العرب. وكثر ذلك بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها»[2]. وليس معنى هذه العبارة أن أحدًا قبله من خلفاء بني أمية لم يستعمل مولًى قط؛ وإنما المعنى: أن المنصور اتخذ استعمال الموالي مبدأ له وقاعدة، ورأسهم على العرب. وهو بهذا المعنى: أول من فعل ذلك، والجهشياري في كتابه تاريخ الوزراء يروى لنا ما يفهم منه: إن أكثر من تولى الأعمال للمنصور موالٍ[3]. ويقول المسعودي في المنصور: «إنه أول خليفة استعمال

(١) محاضرات الأدباء ٢/ ٢٢٣.

(٢) تاريخ الخلفاء ١٠٥.

(٣) انظر الجهشياري: ١٣٩ و١٥٣ و١٥٥ و١٥٧.

مواليه وغلمانه، وصرَّفهم في مهماته، وقدمهم على العرب. فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده -من ولده- سُنَّة؛ فسقطت وبادت العرب، وزال بأسها، وذهبت مراتبها»[١].

ويرَوي الطبري: «أنه كان للمنصور خادم أصفرُ إلى الأدَمةِ، ماهر لا بأس به، فقال المنصور يومًا: ما جنسك؟ قال: عربي يا أمير المؤمنين، قال: ومن أي العرب أنت؟ قال: من خَوْلان، سُبيتُ من اليمن، فأخذني عدوٌّ لنا فجبني فاسترققت، فصرت إلى بعض بني أمية، ثم صرت إليك. قال: أما إنك نِعم الغلام، ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي، اخرج عافاك الله فاذهب حيث شئت!»[٢]. ويروي الأغاني: أن أبا نخيلة وقف على باب أبي جعفر، واستأذن فلم يصل، وجعلت الخراسانية تدخل، وتخرج فتهزأ به، فيرون شيخًا أعرابيًّا جِلْفًا فيعبثون به، فقال له رجل عرفه: كيف أنت يا أبا نخلية؟ فأنشأ يقول:

أصبحت لا يَملك بعضي بعضا ... تشكو العروقُ الآبضاتُ[٣] أيضا!
كما تشتكَّى الأزَجيُّ الفرضا ... كأنما كان شبابي قرضا!

فقال له الرجل: وكيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة؟ فقال:

أكثر خلق الله من لا يُدرَى ... من أيّ خلق الله حين يُلقَى؟!
وحلةٌ تُنشر ثم تُطوى ... وطَيْلسان يشترى فيُغلَى
لعبد عبد أو لمولى مولى ... يا ويح بيت المال! ماذا يَلقَى؟[٤]

---

(١) المسعودي ٢/ ٤٠١.
(٢) الطبري ٩/ ٣١٦.
(٣) الآبضات: المتقلصات.
(٤) الأغاني ١٨/ ١٣٨.

ولكن مع هذا كله استخدم المنصور بعض العرب؛ فقد ولَّى سلم بن قتيبة الباهلي البصرة كما ولَّى مولًى كوَرَ البصرة والأُبُلَّة[١]. ورأيتَ قبل أن جند أبي جعفر كانوا عربًا وعجمًا.

فلما جاء الرشيد زاد نفوذ الفرس بفضل البرامكة، وقد كانوا المصَرِّفين للدولة وشئونها. فاستتبع نفوذهم نفوذ جنسهم، واتخذوا لذلك سياسة محكمة. منها ما يرويه لنا الطبري: «أن الفضل بن يحيى (البرمكي) اتخذ بخراسان جندًا من العجم سماهم «العباسية» وجعل ولاءهم لهم (للعباسيين) وأن عدتهم بلغة خمسمائة ألف رجل، وأنه قدِم منهم بغدادَ عشرون ألف رجل. فسموا ببغداد «الكرنْبِيَّة» وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم»[٢].

---

(١) عيون الأخبار ١/ ٢٩٠.

(٢) طبري ١٠/ ٦٢. وقد ساعد على هذا النفوذ نوع من الولاء جديد، ظهر في هذا العصر، ولم نكن نعرفه من قبل. وهو غير أنواع الولاء التي شرحناها في «فجر الإسلام» ذلك هو ما يسميه ابن خلدون: «ولاء الاصطناع». انظر: ابن خلدون ١/ ١١٤. وذلك أن الخليفة يتخذ قومًا من الفرس أو الترك مثلًا يمنحهم شرف الانتساب إليه وإلى دولته، ويستخدمهم في القيام بشئونه والحرب معه، ويجري عليهم الأرزاق؛ فيسمون مواليه وموالي دولته. كما استخدم العباسيون الأولون بني برمك، وبني نوبخت من الفرس؛ فأطلق عليهم: موالي الدولة العباسية، وكما فعل المعتصم بالأتراك. وهو معنى لم نلحظه في دولة بني أمية فلم يكن لدولتهم موال بهذا المعنى -على ما أعلم- وهذا النوع من الولاء زاد نفوذ الفرس أولًا والترك ثانيًا؛ لأنه كان يزيد عددهم وقوتهم، وكان يشعرهم بأن الدولة دولتهم، وأن لهم سلطانًا على الرعية مستمدًّا من سلطان خليفتهم. وقد رأينا فيما نقلنا عن الطبري أنه في مرة واحدة كان خمسمائة ألف فارسي موالي العباسيين، وهذا عدا الموالي الذين كانوا يؤسرون فيسترقون. فترى من هذا كيف غمر العرب بالموالي.

وزاد نفوذهم كذلك في عهد المأمون؛ فقد انتصر الفرس نصرة ثانية كالتي كانت بين العباسيين والأمويين؛ لأن أغلب الفرس تعصب للمأمون، وأكثر العرب تعصبوا للأمين. فعُدَّت غلبة المأمون نصرةً فارسية. فطيفور يذكر لنا في تاريخه: «أن العرب كانوا يركبون ومعهم القِسِيّ والنشَّاب بين يدي المأمون»[١]. ويروي الطبري: «أن رجلًا تعرض للمأمون بالشام مرارًا فقال له: يا أمير المؤمنين! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان. فقال المأمون: أكثرت عليَّ يا أخا أهل الشام! والله لما أنزلتُ قيسًا عن ظهور الخيل، إلا وأنا أرى أنه لم يبقَ في بيت مالي درهم واحد! وأما اليمن؛ فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانيَّ وخروجه فتكون من أشياعه، وأما ربيعة؛ فساخطة على الله من بعث نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريًا. اعزب فعل الله بك[٢]!».

فلما جاء المعتصم أحل الترك محل الفرس. فنكَّل الترك بالفرس والعرب جميعًا، كما سيتضح ذلك عند الكلام على العصر الثاني إن شاء الله.

***

كان لنفوذ الموالي وخاصة الفرس مظاهر عدة:

(١) أن قصور الخلفاء ملئت بالموالي يستخدمون في أعمال شتى، وبيوتَ الحريم ملئت بالخصيان، وقد أخذ المسلمون ذلك عن البيزنطيين، ولم تكن هذه العادة معروفة عند العرب.

(٢) قصر المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس تقريبًا.

---

(١) طيفور تاريخ بغداد: ١٥.

(٢) طبري ١٠/ ٢٩٦.

(٣) نفوذ العادات والتقاليد الفارسية كإحياء يوم النيروز ولبس القلنْسُوة.

(٤) انتشار الثقافة الفارسية، وسنفرد له بابًا خاصًّا.

***

لم يستسلم العرب لقوة الموالي ونفوذهم بل قاوموا. وكان بين الجانبين صراع عنيف حينًا، وهادئ حينًا، واتخذ هذا الصراع أشكالًا مختلفة. فمثلًا: يعتمد الصراع على الدس عند الخليفة فيكيد العرب للموالي، ويكيد الموالي للعرب. ومن أجل هذا كان تنكيل الخلفاء بالوزراء من حين إلى حين، حتى قال قائلهم:

إن الوزير وزيرَ آل محمد أوْدى فمن يشناك كان وزيرا

وكان تاريخ الوزراء سلسلة نكبات، ولسنا نستبعد أن كثيرًا منها كان سببه ما يشعر به الخلفاء -تحت تأثير الدسائس- من نفوذ الفرس، وقوة سلطانهم، واستبدادهم بالأمور دونهم. يقول ابن خلدون: «وإنما نَكَب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجابهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه؛ فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم؛ من وزارة وكتابة، وقيادة وحجابة، وسيف وقلم». ويقول: «إن البرامكة مُدحوا بما لم يُمْدح به خليفتهم! وأسنَوْا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع... حتى آسفوا البطانة، وأحقدوا الخاصة... فكشفت بهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية. حتى لقد كان بنو قَحْطَبة -أخوال جعفر- من أعظم الساعين عليهم!»[(١)].

(١) مقدمة ص١٣.

ويتناقش نعيم بن حازم العربي مع الفضل بن سهل الفارسي بين يدي المأمون فيحسن الفضل نقل الخلافة إلى العلويين، فيقول نعيم الفضل: إنك إنما تريد أن تزيل الملكَ عن بني العباس إلى ولد عليٍّ ثم تحتال عليهم ثم تصيِّر الملك كسرويًّا»[١].

وكثير ممن تولى المناصب الكبيرة من الفرس كان ينكل بمن استطاع من العرب، كالذي كان بين الأَفْشين وأبي دلف العجلي؛ فقد كان الأفشين فارسيًّا من «أشروسنه» بآسيا الصغرى، وكان قائد جيوش المعتصم، وكان يكره العرب من أعماق نفسه، وكان يقول: «إذا ظفِرت بالعرب شدَخت رءوس عظمائهم بالدَّبُّوس»[٢]. وسيأتي له ذكر عند الكلام في الزندقة. وأبو دلف العجلي عربي من نزار، وكان يعيش عيشة عربية، كريمًا شجاعًا ممدحًا، وبابه مفتوح للشعراء والأدباء والسؤَّال، وماله مقسم عليهم، وكان أحد قواد المعتصم أيضًا «وكان سيد أهله، ورئيس عشيرته من عجل وغيرها من ربيعة. وكان شاعرًا مجيدًا شجاعًا بطلًا مغنيًا»[٣].

فيحدثنا التنوخي في كتابه «الفرج بعد الشدة»: أن الأفشين همَّ بقتل أبي دلف وصفده بالحديد، وأجلسه على نِطع بين يديه يقرِّعه ويخاطبه بأشد غضب، ويهم بقتله! فيعلم أحمد بن أبي داود (وهوعربي وقاضي المأمون والمعتصم) فيسرع إلى الأفشين ويدخل عليه من غير استئذان خيفةأن يعجل عليه، ويقول له: «إن أبا دلف فارس العرب وشريفها؛ فاستبقه وأنعم عليه. فإن لم تره لهذا أهلًا فهبه للعرب كلها، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب! ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملَّكه وأنت اليوم بقية العجم فأنعم على شريف من العرب بالعفو

(١) جهشياري ص٢٩٢.
(٢) الدبوس شبيه بالعصا التي في رأسها عجرة. البيان والتبيين ٣/ ٣٣.
(٣) مسعودي ٢/ ٢٧٧.

عنه!» فيأبى ذلك الأفشين ثم يشعر ابن أبي داود بمكانته عند المعتصم حتى ليستطيع أن يتكلم على لسانه. فيقول للأفشين: إني رسول أمير المؤمنين إليك وهو يقول: لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثًا فإنك إن قتلته قتلت به!». وذهب إلى المعتصم فأخبره الخبر فأقره عليه. وبذلك نجا أبو دلف سيد العرب من سيد العجم![1] وكان أحمد بن أبي داود من ناحية أخرى يستخدم منصبه فيقضي حوائج العرب. «فيقول (للمعتصم): فلان الهاشمي، وفلان القرشي، وفلان الأنصاري، وفلان العربي»، ولا يزال يتلطف حتى تقضى مطالبه[2].

وشكل آخر من شكل الصراع -وهو الصراع الأدبي الذي كان معروفًا في العصر الأموي- وهو الافتخار بالأنساب من طريق الأدب، كالذي كان بين عبد الله بن طاهر (الفارسي) يفتخر بنسبه في الفرس. فيرد عليه محمد بن يزيد (العربي الأموي) يفتخر بالعرب. فقد قال عبد الله بن طاهر قصيدة يفخر بها بمآثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم الأمين، يقول فيها:

أقصِرِي عما لَهِجْت به ... ففراغي عنكِ مشغول
أنا من قد تعرفي نسبي ... سَلَفي الغرُّ البهاليل

ومنها:

وأبى من لا كفاء له ... من يُساوي مجده قولوا!

ومنها:

انظر المخلوع كلكله ... وحواليه المقاويل
فثوى والتراب مضجعه ... غال عنه ملكه غولُ

(١) انظر القصة بأكملها في كتاب الفرج بعد الشدة ٢/ ٦٨.
(٢) انظر القصة في المسعودي ٢/ ٢٩٤.

قـــاد جيـــشًا نحـــو نائلـــة ... ضـــاق عنـــه العـــرض والطـــول
مـــن خراســـانٍ مصَمْـــصَمهم ... كَلُيـــوثٍ ضـــمَّها غِيـــلُ
وهبـــوا الله أنفـــسهم ... لا معازيـــل ولا ميـــل[1]

ويقول محمد بن يزيد: «لما بلغتني هذه القصيدة امتعضت العرب، وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم لأنه قتل ملكًا من ملوكهم بسيف أخيه لا بسيفه، فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الموضع، فرددت عليه قصيدته، ومطلعها:

لا يرُعْـــك القـــال والقيـــل ... كـــل مابلغـــتَ تـــضليلُ
يـــابن بيـــت النـــار موقِـــدُها ... مـــا لحاذيـــه سراويـــل
مـــن حـــسين مـــن أبـــوك ومـــن ... مـــصعب غـــالتكمو غـــول
نـــسب في الفخـــر مؤتـــشب ... وأَبٌـــوَّات أراذيـــل
قالـــت المخلـــوع مقتـــول ... ودم المقتـــول مطلـــول

ومنها:

مـــا جـــرى في عـــود أثْلَـــتِكم ... مـــاء مجـــد فهـــو مَـــدخُول
قـــدحت فيـــه أســـافله ... فأعاليـــه مهازيـــل

ويقول قائل من الفرس:

بهاليـــلُ غـــرٌّ مـــن ذوابـــة فـــارس ... إذا انتـــسبوا لا مـــن عُرَينـــةَ أو عُكـــلْ!
همـــو راضـــةُ الـــدنيا وســـادة أهلهـــا ... إذا افتخـــروا لا راضـــةُ الـــشاءِ والإبـــل

فيقول آخر عربي:

لا تغـــتر أنـــك مـــن فـــارس ... في معـــدنِ الملـــك وديوانـــه

(١) القصيدة موجود بعضها في الفرج بعد الشدة ١/ ٧٤، وهي مملوءة بالتحريف، والقصة مختصرة في الأغاني ١١/ ١٣.

لـــو حـــدَّثت كـــسرى بـــذا نفـــسه صـــــفعته في جـــــوف إيوانـــــه!

وهناك شكل ثالث من أشكال الصراع؛ هو الصراع العلمي، وسنعرض له بعد.

كانت نتيجة هذا الصراع هزيمة العرب وغلبة الموالي. ولكن يجب أن نقرر أن هزيمتهم التامة كانت من الناحية السياسية والإدارية. فأما دينيًّا ولغويًّا فقد انتصر العرب فلم تستطع المجوسية أن تساير الإسلام. ولم تستطع لغات الموالي أن تضع من شأن لغة العرب، بل خدمتها وعملت على ترقيتها من نواحٍ مختلفة. وظل الموالي الذين يخدمون أغراضهم السياسية وينجحون فيها يخدمون في الوقت نفسه الدين واللغة - يضعون قواعدهما، ويضبطون شواردهما- وحركات الزندقة التي كانوا ينفثونها من حين لآخر أخمدت في قوة وإن كانت قد تركت أثرًا ضئيلًا، كما أن سعي بعضهم لإحلال اللغة الفارسية محل العربية لم يصادف في عصرنا الذي نؤرخه آذانًا سميعة، وظلت اللغة العربية هي اللغة الرسمية، وهي لغة الدين ولغة العلم، وأقبل الموالي على تعلمها، وإجادتها إجادة تقرُب من إجادة أهلها. وحسبك دليلًا: أن أبا مسلم الخراساني كان يجيد العربية، ويفهم أراجيز رؤبة[1]. وأن أكثر الكتاب المجيدين في العربية في هذا العصر كانوا فُرْسًا، وأن الأصمعي يحكي عن عصره: أن مما يخل بالمروءة التكلم في مصرٍ عربيٍّ بالفارسية![2]

(١) الأغاني ١٨/ ١٢٣.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٩٦.